﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرّعد: 28]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مقابل أهل الضّلالة، أهل القلوب المهتدية، والضّدُّ يُظهِر حُسنَه الضّدّ

لمّا ذكرَ الله تعالى في الآية السّابقة حالَ مَن اختار الضّلال، فأضلّه الله، ثمّ ختمَها بقوله: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾، بيّن بعدَ ذلك أحوالَ هؤلاء المَهْديّين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾، مُراعيًا في المناسبة وجهَ "المُضادّة لحال الذين أضلّهم الله"[1]، وتعريضًا بكون هؤلاء الضّالّين ليسوا ممّن تطمئنّ قلوبُهم لذِكْر الله.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَطۡمَئِنُّ﴾: الطُّمَأْنينَةُ والاطْمِئْنانُ: السّكونُ بعدَ الانزعاج. وأصل طَمَن: سَكَن[2]. ومعنى ﴿تَطۡمَئِنُّ﴾: تسكن قلوبُهم، وتستأنِسُ نفوسُهم وتركن واثقةً في معيّة الله، بسبب ذِكْره وعبادته.

2) ﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾: (القافُ واللّامُ والباءُ) أصْلانِ صَحيحانِ؛ أحَدُهُما: يَدُلُّ على خالِصِ شَيْءٍ وشَريفِه، والآخَرُ: على رَدِّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إلى جِهَةٍ. فالأوَّلُ: الْقَلْبُ، قَلْبُ الْإِنْسانِ وغَيْرِه؛ سُمّي لأنّه أخْلَصُ شَيْءٍ فيه وأرْفَعُهُ، وخالِصُ كُلِّ شَيْءٍ وأشْرَفُهُ قَلْبُهُ[3]. وردّ بعضُهم القلبَ إلى الأصل الثّاني، فهو إذًا مِن قَلْبِ الشّيءِ، بمعنى: تصريفِه، وصَرْفِه عن وجهٍ إلى وجه، قيل: سُمّي قلبُ الإنسان بذلك لكثرة تَقَلُّبِه. ويُعَبّر بالقلب في القرآن، لا عنِ المُضغَة الكائنة في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/137.
(2) الرّاغب، المفردات: (طمن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).

تجويف الصّدر لِتَضُخّ الدّماءَ في سائر الجسم، ولكن عنِ المعاني التي تَخْتَصّ به، مِنَ الرّوح والعِلْم والشّجاعة وغيرِ ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10] أي: الأرواحُ، وقولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37] أي: عِلْم وفَهْم وعقل، وقولِه: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: 10] أي: تَثْبُتَ به شجاعتُكم ويَزولَ خَوفُكم(1).

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

كفى بالقرآن ذِكرًا، تطمئنّ به قلوبُ المؤمنين، وتأنسُ إلى الله

بيّنت هذه الآيةُ، أنّه إذا كان اللّه تعالى يهدي إليه مَن أقبل عليه وأناب، فإنّ هؤلاءِ المَهديّين هم الذين آمنوا، وهم الّذين تسكنُ قلوبُهم، وتلينُ جلودُهم، وتَهْدأُ نفوسُهم لذِكْر اللّه وتلاوةِ كلامه، اللّذين هما أوْلى ما تَطمَئِنّ به القلوبُ الثّائرة، وتهدأ به النّفوسُ المُضْطربة. فيكون لهم بذلك خيرٌ وفَرَحٌ، وقُرّةُ عينٍ ومثوبةٌ، وحُسنُ مآبٍ ومستَقَرّ في جنّات النّعيم يوم القيامة.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة فصل الآية عمّا قبلَها:

كمال الاتّصال في الآية، مبينٌ عن معنى السّياق

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ مِن قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾، وهذه البدليّةُ هي سِرّ الفصل، وبذلك يكون بينَ الجملتين كمالُ اتّصال، فالّذين أنابوا إلى اللّه هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

دلالة التّعبير بجملة الصّلة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

صدقُ اليقين، يُذَلّل صعوبةَ العمل

سِرّ التّعبيرِ بجملة الصّلة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، مَدْحُهم وتشريفُهم بالإيمان، وبيانُ سببِ إنابتهم إلى اللّه، واطمئنان قلوبِهم لذِكْر اللّه، إنّه الإيمان الذي أضاء أفئِدَتَهم.

(1) الرّاغب، المفردات: (قلب).

سِرّ التّعبير بقوله: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾:

التّعبير بالاطمئنان هنا، اختياره مُرتَهِنٌ بالذّكر والعبوديّة لله

أسباب حصول الاطمئنانِ في القلوب أخذًا مِنَ الآية، هي:

أوّلًا: الإنابة إلى الله، المُحَقِّقةُ للاهتداء إليه، ولها السّبق ذِكْرًا ووجودًا، حيثُ بها تَرِقُّ القلوبُ، وتهفو النّفوسُ إلى التّعلّق بربّها.

ثانيًا: الإيمان المسبوق بالإنابة.

ثالثًا: ذِكْرُ الله، وأولى ما يدخل في ذِكْر الله قراءةُ القرآن والعملُ به؛ فهذه المُقوّمات على ترتيبها المذكور، هي التي تَمَخّضَ عنها الاطمئنان.

وفي موطن آخَر لم يسبق فيه ذِكْر الإنابة إلى الله، وإنّما دَلَف مباشرة إلى وصف الإيمان غيرِ المسبوق بتهيئة الإنابة، ثمّ إلى ذكر الله، نرى أنّه ذكر الوَجَل بدلَ الاطمئنان، وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2]، وقولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: 34 - 35]، والوَجَل: مِن باب التّهيّب وتجليّاتِ صفاتِ الجلال، والاطمئنان: مِن باب السّكينة وتجليّات صفاتِ الجمال، وكأنّ ذِكر الله كي يُحَقّقَ الاطمئنان، يحتاج إلى التّهيئة المذكورة، المُترجَمَة فيما يُعْرَف بأنين المُذْنبين، الذي هو أحبُّ إلى الله مِن تسبيح المدلَّلين.

وإنّما عَبّر بالوَجَل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2]، والوَجَل ضِدّ الاطمئنان، لاختلاف المقام، ففي مقام الرّجاء والرّغبة وحُسن الظّن تطمئنّ القلوب، وفي مقام الرّهبة والخوف تَوْجَل.

وتفسيره: "أنّهم إذا ذَكَروا العقوباتِ، ولم يأمَنوا مِن أن يُقْدِموا على المعاصي، فهناك وصفَهم بالوَجَل، وإذا ذَكَروا وعْدَه بالثّواب والرّحمة، سكنت قلوبُهم إلى ذلك، وأحدُ الأمرين لا يُنافي الآخر؛

لأنّ الوَجَل هو بذِكْر العقاب، والطّمأنينةَ بذِكْر الثّواب، ويوجد الوَجَلُ في حال فِكْرِهم في المعاصي، وتوجد الطّمأنينة عند اشتغالهم بالطّاعات"[1].

سرّ التّعبير بالمضارع ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾:

المُـداومـة على اطمئنان القلب، رَهْـنُ المـداومـةِ على الذِّكر

في التّعبير بالمضارع ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ دون الماضي؛ دلالةٌ على حِرْصهم على ذِكْر الله بالمُداومة عليه، وتَجَدّد نشاطِهم نحوه، ليَسْتَمِرّ معه اطمئنانُ قلوبهم إليه، ولو كَلَّتِ القلوبُ لحظةً، عادت مِن جديد أكثرَ نشاطًا، وأشدَّ اطمئنانًا.

ويحتمل أن تكون الدّلالة هنا هي إفادة تجدّد الاطمئنان، "حسبَ تجدّدِ الآيات وتعدُّدِها"[2]، وهذا على القول بأنّ الذِّكر هو القرآن، وهو الرّاجح.

وعلى أنّ المُراد به ما هو أعمّ مِنَ القرآن، فالمراد: تجدّدُ الاطمئنان حسبَ التّرقّي في ذِكْر الله بأسمائه الحُسنى، وما ورد في المأثور مِنَ الأذكار؛ لأنّ لكلّ ذِكْرٍ منزلًا ومنزلةً، بحسب تجليّات كلّ ذِكْر منها، وبحسب حضورِ قلب الذّاكِر، وتَدَرُّجه في منازل الذّاكرين.

دلالة الاستعارة التّبعيّة:

التّـعـريـض بـالـكـافـريـن، توبيخٌ وتقريع

في قوله تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، تعريضٌ بالكافرين، بأنّهم ليست لهم قلوبٌ، لِخُلُوّها مِن ذِكْر الله، وكما قال الله: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: 43]، وعلى ذلك: فالاطمئنان مستعارٌ لليقين وعدمِ الشّكّ[3].

دلالة إسناد الاطمئنان إلى القلوب دون الصّدور:

الـقـلـوب هـي الأصـل والـجـوهـر، والـصّـدورُ قوالبُها

في إسناد الاطمئنان إلى القلوب، مجازٌ عقليٌّ؛ لأنّ الذي يَطمَئِنّ حقيقةً هو الإنسان، وأُسْنِدَ الاطمئنانُ إلى القلوب دون الصّدور؛ لأنّه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/40.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/20، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/141.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/137.

أدَلّ وأقربُ وأمَسّ، مِن حيثُ إنّ ذكر الصّدور في غير هذه الآية، إنّما يكون باعتبارها حاضنة للقلوب لا غير، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران: 119] وقولِه: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: 57]، وأوضحُ مِن هذا قولُه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46].

سرّ التّعبير عن القرآن بالذّكر:

تشريف القرآن باسم الذّكر، شرفٌ للذّاكرين

في قوله تعالى: ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: بالقرآن، وإنّما سُمّي القرآنُ (ذِكْرًا) لما فيه مِنَ المواعظ، وأخبارِ الأمم الماضية، والذّكر أيضًا الشّرف، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: 44]، أي: شرف؛ لأنّه بلُغَتِهم[1].

دلالة الباء في قوله: ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾:

ذكر الله سببٌ لسكون القلب، وراحةِ الرّوح

الباء هنا هي باء السّببيّة، والمعنى: أنّ قلوبهم تطمئنّ وتَسْكُن بسبب ذِكْر الله.

دلالة إضافة الذّكر، إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾:

التّشريف والتّعظيم للذّكر والذّاكر، لشرفهما بالنّسبة إلى الله القادر

هي مِن إضافة المصدر إلى مفعوله، والمعنى: أنّهم تطمئنّ قلوبُهم بسبب أنّهم يَذْكرون الله، وهي إضافة تشريف للذّكر، وهو القرآن على أرجح الأقوال؛ لأنّه المُسَمّى ذِكْرًا في عدد مِنَ الآيات، ومنها قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: 50]، وقولُه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: 9]، وقولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: 44].

دلالة تكرار الفعل المضارع: ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾:

كلّما تجدّد الذّكر تجدّد الاطمئنان

واختير المضارعُ في ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ مرّتين؛ لدلالته على تجدّد الاطمئنان واستمراره، وأنّه لا يتخلله شَكّ ولا تَردّد[2].

(1) السيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/183.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/138.

دلالة افتتاح جملة التّذييل بـ ﴿أَلَا﴾:

تنبيهُ البشرِ لفضل الذِّكر

"وافتُتِحَت جملةُ ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بحرف التّنبيه؛ اهتمامًا بمضمونها، وإغراءً بوعيه، وهي بمنزلة التّذييل لما في تعريف القلوب مِنَ التّعميم، وفيه إثارةُ الباقين على الكفر على أن يَتَّسِموا بِسِمَة المؤمنين، مِنَ التَّدبُّر في القرآن لتَطمئنّ قلوبُهم، كأنّه يقول: إذا علمتم راحةَ بالِ المؤمنين، فماذا يمنعكم بأن تكونوا مثلَهم، فإن تلك في متناولكم؛ لأنّ ذِكْر الله بمسامعكم"[1]. وفي جملة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ دلالةٌ على القَصْر، أي: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وحْدَه وهو القرآن ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[2].

دلالة تكرار ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾:

تكرار الذِّكر لتنبيه الغافلين، وتقريعِ المتغافلين

إعادةُ قوله تعالى: ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ مُظْهَرًا في مَحَلّ الإضمار؛ لأنّ الأصل فيه أن يأتي مضمرًا لقُرب ذِكْره، للتّركيز عليه، والحَثّ على المحافظة عليه، مِن قِبَل الذّاكرين، وأيضًا لتنبيه الغافلين عنه إلى حاجتهم إليه.

دلالة ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾، مضافةً إلى الضّمير، أو معرّفةً بـ (أل):

اختلاف المراد في كلّ منهما، يدلّ على ثراء التّركيب وتنوّعه

كرّر لفظَ ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾، مضافةً إلى الضّمير، في قوله: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾، حيث الكلامُ مُتّجهٌ إلى قلوب المُنيبين، الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات، فالجملة مختصّةٌ بهم.

وأمّا ذِكْر ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ في الجملة الثّانية: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، فقد ذُكِرت في إطار القاعدة العامّة، وهي تقرير أنّ بذِكْر الله وحْدَه - حصرًا - تطمئنّ كلُّ القلوب، فكانتِ الجملة الأولى بمثابة الحُكْم الفَرْعيّ المُسْتَلّ مِنَ القاعدة العامّة، والمُنَزَّل عليها، وهي الجملة الثّانية.

أو يقال: إنّ الثّانية هي الحُكْم العامّ، والأولى هي تنزيل الحُكْم العامّ على حالة مخصوصة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/138.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/141.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»